من ثنايا التاريخ

اليوم الأخير

للأستاذ المحقق عبد الفتاح السمنجاوى

مدرس الآداب بالمعهد الأزهرى

معلم سبق بنى وطنه بأجيال ؛ فهم جميعا عمى وهو بصير ؛ وهم جميعا صم وهو سميع . يجلس إلى الناس فيراهم مفاخرين بد كأنهم معتزين بعلمهم ؛ ويغيظه منهم أن تكون الغباوة مبعث المفاخرة بالجهل موضع الاعتزاز ؛ وهو راغب فى إيقاف الجهلاء على مبلغ جهلهم والأغبياء على مقدار غباوتهم ؛ ولعمرى ماذا يستطيع أن يصنع رجل لايملك غير سلاح الاقناع ؛ فهو يقضى النهار وشطراً من الليل يباحث الناس فى مختلف الشئون من علم وسياسة وفلسفة ؛ كل أولئك فى سبيل الوصول إلى الحق وإصلاح ماشاع بين الناس من خطأ معتمداً فى كل هذا على الجدل الساذج والحوار البرىء .

ولكن مثل ذلك الرجل لاشك يغيض إلى النفوس بلقى منهم مايلقى الأنبياء والمصلحون فى عهود الظلام والظلم ؛ بل إن الرجل قد لقى من قومه أكثر من هذا فى ظلال الديموقراطية فقد أنكره الناس واتهموه بأفساد عقول الشباب ، والكفر بالآلهة الخالدين ؛ وجاوز هذا إلى الحكم بأعدامه ؛ فقضى الرجل راضيا بما أدى للناس من رسالة الحق ..... ذلك الرجل هو الحكيم سقراط ؛ وقومه هم الأثينيون .

ولست أتحدث إليك عن فلسفة الرجل أو أترجم له بما يجلى لك عن حياته ؛ ولكنى أختار أن أصف لك آخر يوم فى حياة المعلم العبقرى الذى استشهد فى ميدان الواجب بأكثر مما يستشهد الجنود الشجعان فى ساحة الحرب .

قضى المعلم فى السجن أربعين يوما ينتظر اليوم الأخير ؛ وقد جاء اليوم الأخير : وهو لابد غائب قبل أن تغيب الشمس ، وأولئك أصحاب المعلم جاءوا يشهدون المغيب الرهيب ؛ ولكنهم مجتمعون بالباب لايسمح لهم بالدخول ؛ والحارس يقول لهم فى صوت لاعهد له بالاضطراب

إن سقراط فى حضرة المنذرين الذين يفكون عنه الأغلال ، وينذرونه بالموت قبل انقضاء النهار. ويدخل الحارس ثم لايلبث أن يعود ويفتح الباب على مصراعيه . فإذا يرى الداخلون؟ يرون المعلم فى هيبة الحق وجلال اليقين . وإلى جانبه زوجه الأمينة « اجز انتيب . . . » كاسفة البال مطرقة. وبينهما طفلهما لاتعدوه عن مرحه وعبثه عادية . وسرعان ماتفيق المرأة من إطراقها وتصيح كما يصيح المجانين . سقراط ..... سقراط .... !! هذا يومك الأخير وأنتم ياأصحاب سقراط تزودوا من حكمته فى ساعاته الأخيرة ....!! ، ثم يعلو صياحها فتعكر صفاء المكان ولاتدع للمعلم مجال البيان ، والرجل متبرم بهذا لايطيق صبراً ، والمرأة توغل فى عويلها وتستغرب فى حزنها ، والمعلم أخيراً يقضى بأخراجها من المكان ويومىء إلى صديقه « كريتو » أن ينفذ فيها ذلك القضاء ، وهذا الأخير يأمر خادمه فيخرج المرأة ويسود المكان صمت رهيب !!!

ويبدد المعلم ذلك الصمت بكلام يحاور فيه نفسه : «هل يقضى وجودنا بالموت ؟؟ ألا توجد حياة أخرى بعد هذه ؟؟ لقد حكم على القضاة بالموت ، وهاأنا أستقبله وأخلفهم ينعمون بالحياة ، فأينا أسعد فى المصير ؟؟ ..... لقد فكرت طويلا فى ذلك الشأن ، وإنى أقرر الآن فى جرأة وقوة أن الموت خير من الحياة ، ..... أجل ... ، إن قرب الخلاص من إسار الحياة قد بدد الشكوك وأزال الشبهات ، وهذا الذى أقول هو الحق الذى قضيت عمرى أفتش عنه »

ويمضى المعلم هكذا يدفع البرهان بأقوى منه ، ويجيب على أسئلة أصحابه ويحل المشكلات التى يلقونها فى سبيله ، وليس هذا مجال التفصيل ، ولكنى أسوق القليل مما دار فى ذلك المجلس الخطير من آراء الرجل العبقرى ، فهو يمضى فى حواره فيقرر أن كل حالة لابد تعقبها حالة تناقضها ، فالنوم يعقب اليقظة ، واليقظة تعود فتعقب النوم ، كذلك الموت يعقب الحياة ، والحياة لابد تعقب الموت من جديد ، والروح صالحة للبقاء لأنها ليست من هذه المادة القابلة للفناء التى ركب منها الجسم الفانى ، وبنفس هذه الطريقة الجادلة فى الحوار يقنع أصحابه الذين يعترضون عليه بأن الروح أشبه بالأنغام التى تنبعث من أوتار القيثار ، فإذا ماتقطعت الأوتار انقطعت الأنغام إلى غير رجعة ، ويرد المعلم على فريق آخر من أصحابه يقول بأن الجسد والروح أشبه بالإنسان الذى يلبس الثياب فيبليها واحداً بعد واحد ، أما الثوب الأخير فإنه يبلى لابسه.

دعنا أيها القارىء من ذلك الحوار الذى قد لايترك فى نفوسنا أثراً بالغاً ، ولنجاوز ذلك إلى شىء آخر حقيق بالتأثير فينا كما أثر فى أصحاب سقراط ، ذلك يقين الرجل فى الحياة بعد الموت ، وتفكيره فى هذه الحياة الثانية ، والتبصر فيما عساه ينتظره فيها من مصير ، وإيمان الرجل بهذه الحياة ثابت قوى لم يتزعزع فى ذلك النقاش الطويل ، وهذا الإيمان يبعث فى الرجل شجاعة لملاقاة الموت ليست تعدلها شجاعة ، والرجل يؤمن فوق هذا بأن الحياة الآخرة

دار الجزاء ، فمن يعمل فى الدنيا مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» ويدخل صاحب المنذرين بعد ذلك الحوار الطويل ويقول :

« أنت ياسقراط أحب سجين إلى قلبى ، وأنت عليم بأنى خادم صغير أصدع بما أومر ، فإن كنت سأحمل إليك السم لتشربه ، فأنا أحمله وقلبى ينفطر حزنا على فقدك ، وآخر ما أقول إنى أود لك الخير وأتمنى أن تموت على أحسن ما يموت الناس» والحاجب لايكاد يقول الكلمة الأخيرة حتى تغلبه الدموع فيجهش فى البكاء ويرد سقراط فيقول :

« أشكرك ياصاحبى على منبعك الجميل ، ولتوقن أنى عند أمرك منفذ لاشارتك ! ! ألا ترون معى يارفاقى أنه رجل طيب القلب ؟؟ لقد جاء يتمنى لى الخير ، وكان طوال إقامتى فى السجن رحيما بشخصى يلطف السؤال ويرق المقال ، ثم هو الآن يسكب الدموع من أجلى ، فلا تفذ أوامره ، فليأتنى بالسم إذا كان قد طحنه ، وإلا فليسرع فى إعداده وحمله إلى . . !! » وهنا يشير كريتو قائلا : « لم ذلك الأسراع ياصاحبى والشمس لا تزال فوق التلال وبينها وبين المغيب ساعات ؟؟ إنى أعرف أناساً حكم عليهم بالموت فكانوا يقضون ساعات سعيدة فى لهو ومرح يبدون الاهتشاش ويملأون بطونهم طعاماً وشرابا ، ويدعون الكأس جانبا ، فما بك ياسقراط ترغب فى الرحيل السريع ؟ ؟ »

— إن أولئك القوم ياصديقى كريتو يعملون على ما كتبهم ، وهم يعتقدون أنهم حين يؤجلون موتهم ساعات إنما يكسبون من وراء ذلك ، ولكنى أعتقد نقيض ذلك ، أعتقد أن عيشى منكدر فى هذه الدار وأنى بالبقاء فيها أصير مدعاة السخرية ، إذ يقول الناس إنى أتمهل حذر الموت ..... كفانا يارفاق أن تهادينا التحية ، وحسبى ما أصبت من متاع ومستقر فى هذه الحياة ! ولتكن الكأس آخر نوال أصيبه فيها ، فأن كنت يا كريتو ترعى حق صاحبك فلتعمل فى طلب الدواء ، وأى دواء أكثر شفاء من الموت ؟؟!!! »

ويتناول سقراط الكأس بيد ثابتة ، ويستجلى الناس وجهه فلا يرون امتقاعا ولا تغيظيا والرجل يرفع الكأس إلى شفتيه فى رضى واطمئنان ، ويتجرع السم فى سهولة وغبطة ، ولكن أصحابه لا يستطيعون السبيل إلى الصبر ، ولا تلبث أن تشمل المكان عاصفة من الأعوال تهمر فيها دموع سفاح ، والرجل يستقيم فيكبت العاصفة ويحبس الدمع ويقول إنه طرد النساء ليضمن الموت الهادىء فى حضرة الرجال ، ثم يروح ويغدو ثم يفتشى ويستلقى ، فأذا البقية الباقية دم حائر يبيض فى عروق غاصة ، وعضلات مضطربة تحرك أطرافا مسترخية ، ويأتى الحارس فيجس أطراف الرجل ، وإذا بالرجل يفشى بثوبه ثم لا يلبث أن يرفع الثوب عن وجه ويقول فى تؤدة : « أى كريتو .... إنى مدين بمال لأسكولا بيوس ، فلا تنس يا صاحبى أن ترده إليه . . . . . »

وتكون هذه آخر الأنفاس ..

بلاد النوبة

ماضيها — وحاضرها

مقدمة : بلاد النوبة هي تلك البلاد الواقعة ما بين الشلال الأول والرابع وقد أطلق عليها التاريخ أسماء عدة ، فهي في التوراة بلاد الكوش ، وكوش هذا — كما تقول التوراة — جد النوبيين ، وأخو مصرايم جد المصريين — وأطلق عليها الأغريق اسم أثيوبيا : ومعناه الوجه شديد السمرة .

أما اسم النوبة فهو — فيما يقال — نسبة الى كلمة نب ومعناها باللغة النوبية الذهب لوفرة هذا المعدن في محاريها .

وكان يسكن هذه البلاد قوم ينتمون في نسبهم إلى قدماء المصريين حتى ليذهب المؤرخ « ديودور » إلى أن المصريين جالية نوبية نزحت من الجنوب ويؤيد ذلك :

أولا : أن موتى المصريين قبل أزمنة التاريخ كانت تدفن ورؤوسها متجهة نحو الجنوب

ثانيا : أن أشهر آلهة مصر من النوبة مثل أوزيرس الذى أنقذ مصر من الهمجية وعلم أهلها الزراعة ، وشيد المبانى فى طيبة ؛ ومثل زوجته (ايزس) التى أخرجتهم من الوحشية وصرفتهم عن أكل لحوم البشر ، وكذلك ابنها (حورس) الذى طهر مصر من آلهة الشر والفساد

ويذهب الآخرون الى أن النوبيين نزحوا قديما من مصر إلى الجنوب ومعهم بذور الحضارة المصرية ، ويستدل هؤلاء على أن النوبيين كانت لهم حضارة قديمة ، لاتختلف كثيراً عن حضارة المصريين ، كما أن الإله المصرى (أمون) كان يقدس عندهم ؛ وسواء أكان المصريون جالية نوبية نزحت من الجنوب ، أوكان النوبيون جالية مصرية نزحت من الشمال ؛ فلا شك فى أنهما من عنصر واحد ، فقد أثبت العلامة (الیوت سمث) بأبحاثه العلمية فى مقابر المصريين والنوبيين أنه لافرق بين النوبى والمصرى فى التكوين الجثمانى .

أما القبائل النوبية التى تعيش بين الزنوج جنوبى كردفان فانها لا تمت إلى الزنوج بصلة ما ، وإنما وجدت هنالك من القدم فراراً من التصادم بالموجات البشرية المتدفقة إلى تلك البلاد .

ولما جاء الفتح الإسلامى تدفقت سيول القبائل العربية إلى تلك البلاد تقصد الرزق واستغلال مناجم الذهب ، فاختلطت دماء النوبيين والبربر بدماء العرب ، ونزلت هنالك بعض قبائل البربر ، ثم جاء الفتح التركى بعنصر آخر ، فصار النوبيون الآن خليطاً من عدة عناصر أهمها العربى فالبربرى فالنوبى .

مصر والنوبة

ويرتبط التاريخ المصرى بالتاريخ النوبى ارتباطاً وثيقاً حتما ليصح القول بأن كلا منهما متمم للآخر .

والتاريخ النوبى أطوار عدة تبدأ منذ فجر التاريخ حيث عهد البداوة فى النوبة ، وبدء الحضارة والملكية فى مصر ، وفى هذا الطور قامت مصر بكثير من الحملات التجارية والحربية فى بلاد النوبة وبذل ملوكها جهودا فى فتح الطرق البحرية بين الجنادل، وإخضاع قبائل النوبة المجاورة ، التى كثيرا ما كانت تغير على حدود مصر الجنوبية .

فقد غزا (سنفرو) آخر ملوك الأسرة الثالثة بلاد النوبة ، ثم توغل فى الجنوب وعاد ومعه سبعة آلاف أسير وماتتا ألف رأس من الماشية ، واستطاع (ببى الأول) أحد ملوك الأسرة السادسة بعد أن بسط نفوذه على شمال النوبة أن يجند جيشاً نوبياً هزم به أمراء الوجه البحرى .

وهاجر كثير من المصريين بعد تسهيل المواصلات ، وتوثيق العلائق بين مصر والنوبة . فنست فيها بذور الحضارة المصرية ؛ وازدادت عناية الفراعنة باستعمارها ، فدخلت فى طور جديد ؛ وأقام ملوك الدولة الوسطى هنالك القلاع والحصون للسيطرة عليها ولتأمين الطريق ، وتم الاستيلاء على تلك البلاد فى عهد الدولة الحديثة ، وما هى إلا فترة من الزمن حتى استقلت النوبة عن مصر وقامت فيها مملكة قوية عاصمتها نباتا تمكنت من بسط نفوذها على مصر فيما بعد .

ولما كان قيام مملكة نباتا على أساس الحضارة المصرية برعاية كهنة آمون ، توثقت العلاقات بين مصر والنوبة ، فتزوج (أحمس) أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة بابنة ملك النوبة ؛ فأمده هذا الملك بجيش استطاع أن يطرد به الرعاة من مصر ، وتزوج (كاشتا) ملك النوبة بابنة كاهن مصرى انجبت له بعض ملوك الأسرة الخامسة والعشرين .

ثم اضمحلت مملكة نباتا بعد سقوط هذه الأسرة ؛ فاستقلت كل من مصر والنوبة ؛ فتعاقب على مصر الفرس والبطالسة والرومان فقامت فى بلاد النوبة مملكة مروى ، فنالت فى التاريخ ما لم تنله نباتا من الشهرة ، وفى القرن السادس الميلادى كانت المسيحية قد انتشرت فى تلك البلاد وكان الإسلام قد وصل مصر إذ ذاك ، وأحاط المسلمون ببلاد النوبة من الشمال والشرق ؛ وكان لهم مع نصارى النوبة ، ووثنيى البجة عدة وقائع حتى اعتنق النوبيون الإسلام حوالى القرن الثامن الهجرى . ثم انقسمت بلاد النوبة بعد ذلك ، بين الفونج فى الجنوب ، والكشاف فى الشمال ، حتى جاء الفتح المصرى الأخير فعادت كلها تابعة لمصر .

(الدر)

أحمد على الجزاوى
خريج مدرسة المعلمين الأولية

مصرع البرامكة

من الروايات المدخولة للمؤرخين فى سبب نكبة البرامكة أن العباسة أخت الرشيد كان بينها وبين جعفر بن يحيى بن خالد غرام وولع ، وأنه لكانه بمكانها من معاقرته الخمر أذن لها فى عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعها فى مجلسه . وأن العباسة تحيلت عليه فى التماس الخلوة به لما شغفها من حبه ، وزعموا أن ذلك كان فى حالة سكر فحملت ووشى بذلك للرشيد فكانت نكبتهم .

على أن العباسة هى أخت الرشيد وبنت محمد المهدى بن عبد الله أبى جعفر المنصور بن محمد السجاد بن على أبى الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن بن العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ابنة خليفة وأخت خليفة وهى المحفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الدين ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاتها والقريبة العهد ببداوة العروبية أعنى أنها بعيدة عن عوائد الترف والانهماك فى اللذات : فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها وأين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدت من بيتها ؟؟؟ وكيف يلتحم نسبها بنسب مولى من موالى العجم بملكة ، جده من الفرس ومولاه جدها من عمومة الرسول وأشرف قريش ..... بل كيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مولى من موالى دولتها وفى سلطان قومها واستنكره ولج فى تكذيبه : بل أين مقام العباسة والرشيد من عامة الناس ؟ وأين قدر البرامكة الموالى من قدر الرشيد الخليفة ؟ وأين قدر العباسة من هؤلاء ؟؟؟ إنا لننزهها عن ذلك ... وإنها لمترفعة عن كل ما لحق بها وإنها لمثل صالح المرأة الدينية المهذبة

أما نكبة البرامكة ومصرعهم فيرجع إلى استبدادهم بالدولة واجتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه فى دولته وسلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور مملكته حتى عظمت آثارهم وذاع صيتهم واكتظت الدواوين بالرؤساء من أبنائهم واحتكروا الكتابة والقيادة والحجابة والسيف والقلم عمن سواهم — فقد روى أنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودقعوهم عنها ودرج من عشه

وغلب على أمره ، وكان يدعوه يا أبت فتوجه الأبصار من السلطان إليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال وتحفت إليهم هدايا الملوك وتحف الأمراء وسيرت إليهم أموال الجباية فى سبيل التزلف والاستمالة ، وكسوا من بيوت الأشراف المعدم وفكوا العانى ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك ، وما زالوا كذلك حتى ثلت عروشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخفت الأرض بهم وبديارهم وذهبت سلفاً ومثلا للآخرين ، ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب ؟

ملخ

محمد المصرى

النتيجة السنوية الجديدة

نسجل إعجابنا العظيم ببعض حضرات المعلمين الأزاميين الذين ضربوا بسهم وافر فى علوم الفلك وبعثوا لنا بثمرة مجهودهم القيم .

من ذلك النتيجة السنوية التى قام بضبط حسابها ومواقيتها الأستاذ عبد السلام العشرى المدرس بمدرسة الخوالد بمديرية البحيرة ؛ ونتيجة أخرى من حساب الأستاذ عزيز محمود الكومى ناظر مدرسة تفيدة بالواحات الداخلة ذات مواقيت الزمن العربى والأفرنكى .

وقد اطلعنا على هذين التقويمين فوجدناهما فى غاية الضبط من حيث الأهلة والزمن والمواقيت ومواسم الزراعة والأعياد الرسمية وغير ذلك .

فنشكر للأستاذين علو همتهما وعظيم مجهودهما — فهما حقاً جديران بالإعجاب والتقدير أكثر الله من أمثالهما فى المعلمين .